إن مدار العبودية على قاعدتين، هما أصلها: حب كامل وذل تام.

ومنشـأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين وهما: مشاهدة المنة، التي تورث المحبة، ومطالعـة عيب النفس والعمل، التي تورث الذل التام.

وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى علـى هذين الأصلين: لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة، وما أسـرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته.

وإنما يسـتقيم للعبد سلوكه هذا: باستقامة قلبه وجوارحه، واستقامة القلب بأمرين:

الأمر الأول: أن تكـون محبة الله تعالى في القلب على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره: سـبق حـب الله تعالى حب ما سـواه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان: يكرم المرء أو يهان، وما أكثـر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه، ولا ينال شيئا منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إيثار هواه وما يحبه: على محبة الله تعالى، وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع، أن من أحب شيئا سواه عذب به ولا بد، وأن من خاف غيره سلط عليه، وأن من اشتغل بشـيء غيره كان شؤما عليه، ومـن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي في القلب، وهو ناشـئ عن تعظيم الآمـر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، فقال سبحانه وتعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقارا). أي: ما لكم لا تخافون الله تعالى وتعظمونه حق عظمته.

وأول مراتـب تعظيم الحق عز وجل: تعظيم أمره ونهيه، وتعظيم الأمر والنهي: هو ألا يعرضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشـديد غال، ولا يحملا على علة توهن الانقياد.

فتعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه: دال على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشـهود لهم بالإيمان والتصديق، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبـر، فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سـقوطه من أعينهم، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التـي رتبت على المناهي، فهـذا ليس فعله وتركه صادرا عن تعظيم الأمر والنهي، ولا تعظيم الآمر والناهي.

فعلامـة التعظيـم للأوامر رعايـة أوقاتها وحدودها، والتفتيش علـى أركانها وواجباتها وكمالهـا، والحرص على تحينها فـي أوقاتها، والمسـارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها.

فمـن تعظيم أمـر الله تعالى الخشـوع في الصـلاة، وحضور القلب فيها بـين يدي الرب تبارك وتعالى، الـذي هو روحها ولبها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يسـتحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبدا ميتا أو جارية ميتة؟ فما ظن هذا العبد أن تقـع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟ فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيهـا: بمنزلة هذا العبد الميت الذي يريد إهداءه إلـى بعض الملوك ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليهـا، فإنه ليس للعبد مـن صلاته إلا ما عقل منها، كما في مسـند أحمد عن عمار بن ياسـر ﷺ قال: (إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها).

الإيمان باليوم الآخر وأثره على السلوك

خلق الله سبحانه الخلق لعبادته وتوحيده. قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ـ الذاريات: 56)، وقال سبحانه: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ـ النحل: 36).

فمـن الناس من آمـن واتبع الرسـل، ومنهم من عاند وأعرض، وخاطب الله سـبحانه الجميع بأنهم عائدون إليه والله يجزيهـم بأعمالهم. قال عز وجل: (وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ـ الأنبياء: 93).

فالمرجع إلى الله وإليه المآب، ولكن الناس في هذه الحياة منهم مصدق، ومنهم مكذب، ومنهم مسوف وأمله بعيد وهو في غفلة.

قال الناظم:

الناس في غفلة والموت يوقظهم
وما يفيقون حتى ينفد العمر
يشيعون أهاليهم بجمعهم
وينظرون إلى ما فيه قد قبروا
ويرجعون إلى أحلام غفلتهم
كأنهم ما رأوا شيئا ولا نظروا

هكذا شـأن أكثر الناس يتأثرون ويقولون: فلان مات فلان مات، ثم تعود الغفلة.

والأمر كما قيل: ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار.

قال تعالى: (أفحسـبتم أنمـا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعـون (115) فتعالـى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العـرش الكريم ـ المؤمنـون: 115و116) أي أتظنون أن خلقكـم لعب وعبث لا لحكمـة فلا ثواب ولا عقاب ولا مآب للجزاء والحسـاب فتعالى الله أي تعاظم عن ظنونكم الباطلة.

إن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان ومنكره كافر، والواجب على المسـلم العاقل اسـتحضار يوم القيامة في أعماله خوفا ورجاء يستحضرها ويحتسبها لله تعالى.

نرى الجنة أمامنا بنعيمها دائما لا تغيب عنا، ونرى النار بهولها وعذابها لا تفارق خيالنا، فهذه اليقظة المستمرة تثمر في قلب المؤمن الرجاء في أن يكون من أهل الجنة فيحمله رجاؤه على طاعة الله، ويحجزه خوفه من الله على اجتناب محارم الله وما لم يأذن به الله، فترى الذي يخاف الدار الآخرة مراقبا لنفسه فيأتي الواجبات مسرعا راغبا بما عند الله، وكذلك يحمله الإيمان بربه على أداء الأمانة والصدق والعدل، وكذلك يحمله على ما أمر الله به من أنواع الأوامر في التعامل الحسن مع النفس والأهل والأرحام، والأصدقاء، وعموم المسلمين.

وكذلك اليقظة توجب على المسلم اغتنام وقته هو وأهله وذريتـه بما ينفع فيسـتثمر حياته كلهـا لله، (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (162) لا شـريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ـ الأنعام: 162و163).

لأن الحياة الدنيا فانية، والحياة الدائمة هي حياة الآخرة لهذا يقول المفرط يـوم القيامة: (يقول يا ليتني قدمت لحياتي ـ الفجر:24) لأنها الحياة الدائمة، أما الدنيا فإنها أحلام نوم، وظل زائل، وهي أشبه بالزيارة القصيرة، قال تعالى: (ألهاكم التكاثر (1) حتى زرتم المقابر ـ التكاثر: 1و2)، فأخبر الله سـبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهـم عن الله والدار الآخـرة حتى حضرهم الموت فـزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت ايذانا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائريـن يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا في الدنيا زائرين لها غير مسـتقرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار.

قـال تعالى: (وما هذه الحيـاة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ـ العنكبوت: 64).

فالحياة الدنيا فانية، وأما الآخرة فهي الدار الكاملة التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة والجمال، لأنها خلقت للحياة فتتم بها اللذات من مفرحات القلوب، وشـهوات الأبدان، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فلو أن الناس يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لمـا رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب.

إن استحضار اليوم الآخر في قلب المؤمن يعدل السلوك، ويصحح الأخلاق، ويحفز المؤمن للطاعات، ويبعده عن السـيئات، وهذا هو الوازع الديني، ولهذا دائما ما كان يربط النبي ﷺ الأعمال بالإيمان بالله واليوم الآخر.

عـن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسـول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمـن بـالله واليوم الآخر فليكـرم ضيفه» رواه البخاري (6475).

وعند الإمام أحمد بسـند صحيح: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر».

كل هذه الشـواهد وغيرها كثير تهذب النفس وتربيها التربية الإيمانية، ويذكرنا الله بهذا اليوم مرات عديدة في اليوم والليلة من خلال قراءة سورة الفاتحة بالصلاة (مالك يوم الدين)، وليس هذا فحسب فإنه يوم الخروج ويوم الحسرة ولها تسميات ولها دلالات تربي في النفس ألا ظلم لأحد، وحتى تتفجـر ينابيع الخير في النفس استعدادا لذلك اليوم العظيم فيبر الولد بوالده، ويحسن كل من الزوجين عشرة بعض، ويحترم المسؤول رعيته، ويمسك التاجر عن الغش والحرام، وينفق الغني من ماله على المحتاجين، ويؤدي الموظف وظيفته بإتقان.

شهر الانتصارات

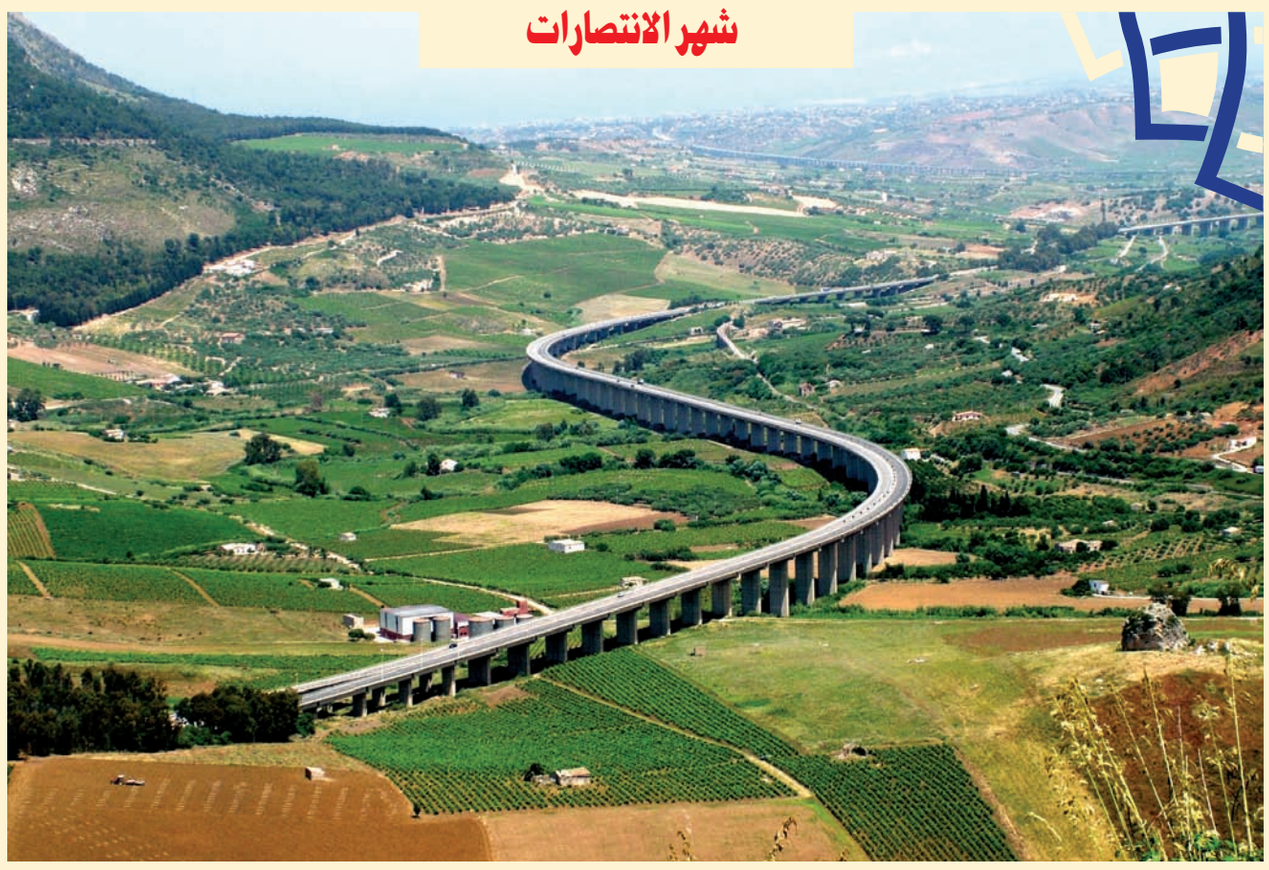

فتح سرقوسة

كان دخول المسلمين مدينة سرقوسة، وهي أعظم مدن جزيـرة صقلية في 14 رمضان سنة 264 هـ 21 مارس سنة 878 م، على يد الوالي جعفر بن محمـد، وكانت فتوحات الجزر البيزنطية شـرقي البحر المتوسط امتدادا للفتوحـات البحرية التي بدأت في عهد عثمان بن عفان، وتوسع فيها المسلمون في العهد الأموي بداية من عهد معاوية بن سفيان ﷺ وخلفائه من بعده.

وكانـت سرقوسـة من أحصـن المدن البيزنطية في جزيـرة صقلية، وعز على المسلمين دخولها، وكانت ملاذا يلوذ به الروم كلما حصرهم المسـلمون في تلك المنطقة، وظلت سرقوسة ممتنعة على الفتوحات، وقصارى كل وال أن يبث في أرضها السرايا فيغنم ثم يعود للحصون الإسـلامية، ولا يستطيع فتحها كلية.

ولكن الوالي المسلم جعفر بن محمد وقتها عزم على امتداد سلطان المسلمين عليها، وقام بالإغارة عليها ومحاصرتها، بعد أن تمكن من السيطرة على قطانية، وطبرمين، ورمطة، وغيرها من بلاد صقلية التي بيد الروم، وقد تحصن الروم داخل سرقوسة، وبدأوا في رد مناوشات المسلمين بقوة، واضطر المسلمين لمحاصرة المدينة تسعة أشهر برا وبحرا لمنع وصول الإمدادات البيزنطية إليها.

يقول «ابن الأثير» في كتابه «الكامل في التاريخ» في وصف فتح «سرقوسة»:

«... نازل سرقوسة، وحصرها برا وبحرا وملك بعض أرباضها ووصلت مراكب الروم نجدة لها فسـير إليها أسطولا فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها فأقام العسكر محاصرا لها تسعة أشهر، وفتحت، وقتل من أهلها عدة ألوف، وأصيب فيها من الغنائم مـا لم يصب بمدينة أخـرى، ولم ينج من رجالها إلا الشـاذ الفذ... وأقاموا فيها بعد فتحها بشهرين».

وقد كان حصار سرقوسـة شديدا على سـكانها، وعانـى الروم أشـد العناء بعد أن اسـتنفذوا كل المؤن بالمدينة، وخاصة مع شـدة إحكام الحصار على كافة مداخل ومخارج المدينة، ويصف الراهب الغرماطيقي «ثيودوسيوس» في رسالة بعنوان «Epistolae De Expugnation Siracusarum» كتبها يصف فيها حصار المسلمين لبلده، وانتشار المجاعة بين أهل المدينة فيقول: «لقد أتينا على كل الدواجـن واضطررنا الى أن نأكل ما كانت تحصله أيدينا، دون أن نراعي فروض الصوم، لأن الحبوب والأعشاب والزيت كانت كلها قد نفدت، وأما صيد السـمك فوقف منذ أن قبض العدو على زمام الميناء. وكان المقدار الضئيل من القمح، إذا تيسر، يسوي مائة وخمسـين بيزانته ذهبيـة، ومن الطحين مائتين، وأوقيتا الخبـز ببيزانتة واحدة، ورأس حصان أو حمار يباع بخمس عشرة أو عشرين، أما الفرس فلا يتيسر شراؤها بأقل من ثلاثمائة..».

وفـي النهاية دخل المسـلمون المدينة، وخربوا حصونها التي عزت على المسلمين سـنوات طويلة وساقوا الغنائم والأسرى إلى مدينة «بلرم» مقر ولاتهم.

وقد حاول الروم الحيلولة دون سقوط «سرقوسة»، وكانت آخر محاولاتهم أن أرسلوا أسطولا رومانيا بحريا من القسطنطينية لمقاومة المسلمين، ولكن المسلمين بقيادة جعفر بن محمد استطاعوا هزيمة الأسطول البحري وظفروا بأربع قطع بحرية منه.

وكان سـقوط سرقوسـة كارثة كبرى لبيزنطة وسياستها الحربية، فقد انهارت الجهود الجبارة التي بذلتها سنوات طويلة لإعادة النفوذ البيزنطي على ساحل البحر المتوسط.

رمضانيات

من روائع الخط العربي

نور على نور

الخطاط كوفينج ـ تركيا

تم تنفيذ هذا العمل باسـتخدام الخزف على طريقة «ازنيك». وقد انتشـر هذا الأسلوب في القرن السادس عشر حيث استخدمه العثمانيون في تزيين المسـاجد والقصـور، ويمتاز بألوانه الجذابة وتصاميمه المتقنة.